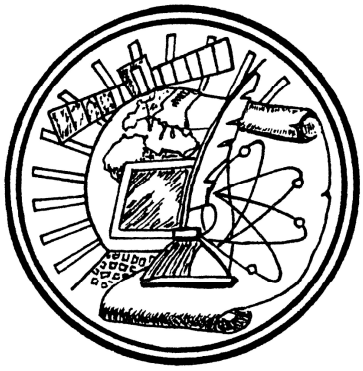

تـــرجمـــة رواية" نـــجـــمـــة"
لكاتب ياسين

السعيد بوطاجين

العامية أيضا:

يضعك نص من نوع « نجمة » أمام عدّة خيارات لسانية ومعجمية وأسلوبية، والحال أن كل هذه الخيارات ستكون مجرّد مقاربات فرضية لا تفي بالغرض من حيث أن أحسن ترجمة هي الإبقاء على الرواية كما هي.

ظللت مترددا لمدّة في كيفية التعامل مع لغة الحوار بالدرجة الأولى، لأن المتربصين في زوايا الإيديولوجية وأزقتها المشبوهة سيحققون معك لمعرفة أسباب التخلي عن العامية واستعمال لغة عربية معيارية بعد تليينها احتراما لبعض المستويات التعبيرية.

كانت تلك مشكلة حقيقية سيؤدلجها الآخرون، بداية من أنصار الحل الثالث وصولا إلى الذين لم يقرأوا، نجمة ولم يعرفوها إلا على ألسنة الآخرين، تأسيسا على ثقافة الأذن ونواميس المقاهي والحانات، وما أكثر هؤلاء.

لقد وردت الحوارات بلغة فرنسية معيارية جدا وسليمة جدا وشاعرية في أغلب الصفحات، ولا أدري كيف سوّغ بعضهم هذا المستوى الرّاقي لشخصيات ذات مستوى ثقافي غاية في التواضع، لكنهم ينقلبون على أعقابهم عندما يترجم هذا الحوار إلى العربية بالاشتغال على المستويات التعبيرية والمعجمية، دون استعمال الدارجة.

ثمة خلط بين طروحات كاتب ياسين وفعل الكتابة, أما جديد الترجمة الذي انتظره هذا الآخر فلم يتحقق لاعتبارات كثيرة، وأهمّها الحفاظ على هوية الرواية التي لم تكتب بالعامية رغم تموقع صاحبها وآرائه اللسانية التي استغلت في إطار غير أدبي، ما ألحق بعض الضرر بنجمة بإخراجها من إطارها الحقيقي.

كانت فكرة توطين الرواية، بالنسبة إليّ، هي جوهر الترجمة، لقد سعيت إلى جعلها رواية جزائرية الروح، وتفاديت حصرها جغرافيا بالاتكاء على بدائل لغوية لم تكن مجسدة نصيا حتى من قبل الكاتب نفسه. وكنت أرى أيّ عدول عن لغة الكاتب هو خيانة له ولأثره، ومن ثم استقراري على لغة فصيحة بالدرجة الأولى.

بحثت عن ألفاظ متواترة في الشرق الجزائري حيث تجري الأحداث وأصّلتها بالعودة إلى المعاجم العربية. لهذا بدت لبعضهم عامية مع أنها قاموسية. توقعت هذه التعليقات من الفئة الأخرى. ما يعني أني كنت أمام معادلة عبثية: ضرورة استعمال الدارجة وضرورة عدم استعمالها في آن واحد لإرضاء هذا وذاك: الوقوف في مفترق الطرق هو أتعس حالة. ذاك شعوري قبل الترجمة وبعدها. لا يمكن الرقص على كل الإيقاعات، كما أن تسييس الرواية هو تخريب لها وتقزيم لقيمتها وديمومتها.

البناء وأنظمة الجملة:

واجهت لاحقا مشكلة الكتابة ذاتها. تتميز نجمة بالجملة الطويلة القائمة على سلسلة من أشباه الجمل التي تنتهي بجملة فعلية بعد مقطع يستغرق صفحة في بعض الحالات.

ثمة أمران إثنان: خصوصية بنية اللغة الفرنسية وقضية السرد السريع كتقنية- هدف ظهرت في الرواية الجديدة، خاصة مع واليام فوكز في الصخب والعنف، قبل أن تنتشر هنا وهناك بفعل المقابسات الناتجة عن أسفار الآداب بطرق متباينة.

النحو العربي لا يقبل هذه الأبنية بالنظر إلى خصوصية قواعده المختلفة عن خصوصيات اللغة الفرنسية، ومن ثم اللجوء إلى قلب المقطع رأسا على عقب حتى يستقيم البناء، مع الحفاظ على علامات الوقف تفاديا لانمحاء السرد السريع من حيث أنه أحد خيارات الكاتب، على نحو ما سنجده لاحقا في الرواية الجزائرية الجديدة التي ستستورد هذه الطريقة لغايات مختلفة، عن وعي أحيانا وباستخفاف أحيانا آخر.

استغرقت هذه العملية وقتا معتبرا لأنها مكلفة ومرهقة وتفرض عليك جهدا إضافيا يحتم عليك القيام بفعل مركب: الهدم والبناء، مع مراعاة مقصد هذا الفعل المركب.

يبدو لي أن هذه المرحلة هي أعقد المراحل قاطبة، هناك روايات كثيرة لا تضعك أمام هذه المعضلة لأنها تحتكم إلى الجمل القصيرة الواضحة الحدود والمعالم، أمّا نجمة فإنها منحوتة بشكل غاية في التعقيد، ما ينتج، في سياقات كثيرة، حالات من الغموض والإبهام وجب التحكم فيها تفاديا لترجمة ملتبسة تضاف إلى لبس قاعدي مردّه الشكل السردي في حدّ ذاته.

لن تكفي قراءة واحدة للمقطع المتشابك، يلزم المترجم تفكيك بكثير من التأني لإدراك العلاقات الجملية و آلياتها، وماعدا ذلك فستضيع المعاني والدلالات، وسنكون آنذاك أمام رواية ممسوخة إلى العربية، وليست رواية منقولة إليها بتشغيل الأدوات اللسانية والبلاغية في سياقات عينية تفرضها الجملة والبنية والصيغة والمقاصد، أي

هذه الشبكة المتراصة من أدوات إنتاج المعنى دون التضحية بالجانب الفني كموضوع أساس من موضوعات الرواية.

بمقدورنا الوصول إلى ترجمة المعاني في وقت قياسي، سنصل إلى ذلك بالقفز على تقنيات سردية كثيرة، وهو أمر ممكن إلى حدّ ما، لكنه يقلّل من شأن الرواية فنيا لأن الكاتب أرادها كذلك، كما هي، متشظية وقلقة، مفككة ومبتورة، لذلك سيكون تنظيمها وفق منطق آخر مساسا بجوهرها وبقناعات كاتب ياسين في هذا المؤلف الاستثنائي، خاصة من حيث الخيار البنائي وهدفه.

مسألة العلاقات السببية

تتميّز نجمة بانقطاعات وانكسارات معتبرة، سواء ما تعلق بطريقة السرد أم بتنظيم الأحداث وفق إستراتيجية منطقية. لا نقصد هاهنا ما اصطلح عليه في الدراسات السردية الجديدة بالزمان الأحادي والزمان المركب، أي ما يتعلق بالتسلسلات والتنافرات، إنما هذا الشكل من البتر الذي يسهم في إنتاج إضمارات تكسر الحكاية في نقاط كثيرة، ثم الانتقال إلى موضوعة دون أيّ تقديم يسوّغ فعل الانتقال المفاجئ، أم التوقف المفاجئ في فترات حساسة من تقدم النص، أم في العلاقة بين الشخصيات أم على مستوى بنية الشخصية الواحدة.

تواجه الترجمة في بناء فاقد للعلاقات السببية مشكلة معنى بالدرجة الأولى هناك غموض سببه هذا التخلي الغريب عن الحكاية، ثمة حكايات لا تكتمل، شخصيات لا تكتمل، موضوعات لا تكتمل، أحداث لا تكتمل، لا شيء يكتمل في نجمة، ولو أن النقد لم ينتبه إلى هذه الظاهرة، يتوقف المعنى في الوسط، والموضوعات تجزء في وسطها، والبناء المقطوعاتي يقدّم مجزء ومهلهلا، وهكذا. أمّا المعنى فيكمن في هذا الغموض الذي يتقوّى من صفحة إلى أخرى.

لم أبحث عن أية طريقة للربط قصد إجلاء المعاني، ولم أهمش ولم أقدّم شروحات لأن ذلك لا يخصني كمترجم. لقد لاحظت قضايا كثيرة يمكن التعليق عليها، لكنّ السياق الثقافي غير مناسب، لذلك أكتفيت بالنقل في حدود إمكاناتي، تاركا للنقاد مهمة شرح هذا التمزق الذي يسم الرواية في مقاطع لا حصر لها.

لا أدري إن كنت تعاملت جيدا مع المعجم. لقد راعيت محور الاختيار وتمت استبدالات كثيرة لألفاظ رايتها قاصرة عن أداء الغرض أو ثقيلة صوتيا في بعض الجمل، أي أني أخذت في الحسبان الجوانب الصوتية والموسيقية تفاديا لظهور "ممهلات" تمسّ بالإيقاع العام للرواية، وذاك جهد آخر يتطلب ذائقة موسيقية وتؤدة.

مع ذلك فأنا أفكّر حاليا في العودة إلى هذه الترجمة، سأقرأها بعين أخرى لعلّني أقدّم مقاربة أكثر جودة، لكنّ المقاربات تظل مقاربات وكفى، ولو استطعنا تقديم نص أفضل من النص الأصلي. لا توجد علوم دقيقة في فعل الترجمة، هناك لغة وأساليب وبلاغة. من منا يستطيع أن يزن فعلا أو جملة أو عبارة؟ من هذا الذي يقيس سمك الدلالة؟ ومن هذا المترجم الذي لا يخون كثيرا أو قليلا؟ الترجمة خيانة جميلة.